١- لمحات في البعد الإنساني لشخصية المرجع السيد حسين فضل الله

بقلم: الإعلامي هاني عبد الله
المستشار السياسي والإعلامي للمرجع الراحل
السيد محمد حسين فضل الله

" خلقت رقيقا كأن الإله براني من نسمة نادية"

يختصر هذا البيت شخصية المرجع السيد محمد حسين فضل الله في بعدها الإنساني الذي تجلى في فكره، وحركته وسلوكه. وفي الحقيقة أن هذا البيت هو من قصيدة ضائعة لسماحته، هكذا حدثني بعض زملائي وبعض متتبعي شعره، في جلسة وجدانية أدبية خالصة ، أعقبت الدرس الذي كان بمثابة مطارحات حول الأمور والتحديات الفقهية المستخدمه، والذي كان يقيمه ليل الأربعاء وبشكل أسبوعي.

قال لنا السيد فضل الله : هذا هو البيت الوحيد الذي بقى في ذهني من تلك القصيدة وأذكر أننا حاولنا البحث عن هذه القصيدة في مكتبة سماحته، وفي منزله عبر أولاده وحتى في مراسلتنا مع رفاق درب السيد في النجف الأشرف .. ولم نعثر على هذه القصيدة ...

يمكن رصد البعد الإنساني الممتلئ حباً ووجدانا في المسار العام للمرجع السيد محمد حسين فضل الله من السياسة، الى الفقه، الى الجوانب الفكرية والثقافية، وفي شعره خصوصا، كما يمكني رصد ذلك من تجربته الفريدة. وحركته في الحياة، حيث كان يفضل دائما أن يتعب نفسه ليرتاح من حوله، وكان "يعتصر" جسده ولا يتوقف عن الحركه والعطاء لأنه يشعر أن "الساحة" (وهذه مفردة من مفرداته) بحاجة له ...

رسالي لا يتقاعد

أذكر أننا في إحدى الجلسات معه، مع مجموعة من المثقفين والمعنيين بالشأنين الإعلامي والثقافي.. وكنا في معرض السؤال له حول السبب في إصراره على العطاء والتعب إلى حد الإنهاك، حيث وكان في أؤاخر الستينيات من العمر.. كان يجيبنا : ".. من المفترض أن إنسانا مثلي يشعر بالحاجه الى الراحة .. ويتقاعد كما هو الحال .. ولكنني وفي هذه الأيام بالذات. ووسط كل هذه التحديات أشعر بأن المسؤولية الإسلامية والشرعية والإنسانية تفرض علي أن أضاعف من جهدي سيما وأنني أنظر الى الفراغ الموجود في الساحة.."ويقصد تقصير العلماء والمثقفين والطليعة الواعية عن القيام بمسؤولياتها وخوفها وإبتعادها عن الجرأة في مواجهة التحديات والوقوف بوجه الخرافيين والمغالين كونهم العون للأعداء على إختراق الساحة الداخلية كما كان يرى.. وكم كان يردد في جلساتنا الخاصة، عندما نتحدث عن المثقفين ومن يملكون موقعا فكريا أو ثقافيا أو غير ذلك : ".. هذه الفئة خذلتني" ولم يكن الخذلان ذاتيا كما كان يفكر لأن المسألة عنده ليست هي : "محمد حسين فضل الله.. فهذا الشخص سوف يرحل.. الأشخاص من يمثلون مرحلة.. والمسألة هي الإسلام في إشراقه وفي إمتداده الحاضري".

كان السيد فضل الله يرصد "هذا التخلف في الساحة"، وينظر الى مسألتين أساسيتين ساهمتا في حالة التراجع والركود التي تعيشها الأمة .. ويعمل على معالجتها. وتتمثل الأولى في الإنقسام المذهبي والطائفي الذي يرخي بظلاله على الوضع السياسي والإجتماعي. والثانية في حالة الغلو والتقديس التي تسيطر على الوسط الديني وعلى الساحة الإسلامية السنية والشيعية .. ولذلك ركز عمله وجهده الفكري وحركته اليومية على تعميق الوحدة في الساحة الإسلامية أولا، وفي ميدان الحوار الإسلامي المسيحي. ثانيا، وخصوصا في المراحل التي كان فيها لبنان يعيش وسط هذا "الضجيج المذهبي والطائفي وهذا الحريق الملتهب" .. وكان يعتقد أننا كلما تقدمنا في الحرب على الخرافة والغلو كلما اقتربنا أكثر من الوحدة في الوسط الإسلامي".

سيد يتخلى عن نفسه

وفي غمرة هذه التحديات كان السيد فضل الله ينسى نفسه .. ينسى هويته الفردية ويذوب في الشخصية الإنسانية والإسلامية والرسالية العامة .. وأذكر أنني كنت أجلس في المكتبة (في منزله) في أواسط التسعينيات، وأنا في حالة نقاش معه حول تنازله عن كثير من الأمور لحساب المصلحة العامه قال لي :" أنا منذ بدأت مسيرتي في العمل الإسلامي تخليت عن شيئ إسمه محمد حسن فضل الله .. محمد حسين فضل الله المزاج تخلصت منه .. وبقي محمد حسين فضل الله الرسالة.." وكان يشرح لي أن هذا الإسم (نفسه) " لا يعني لي شيئا إن لم يقدم الإضافة العملية والحركية المطلوبة والتي تحتاجها المرحلة..".

كان المرجع فضل الله يردد كلمته التي يعرفها كل الذين لاصقوه وعاشوا معه: " أنا وقف إسلامي إستعملوني .." أي إستفيدوا مني ما استطعتم وما أمكنكم ذلك ..

وقال أمامي لأحد المسؤولين الإسلاميين والمعنيين في الجانب التربوي في مطلع التسعينيات من القرن الماضي "استفيدو من هذا الإسم ولن تستفيدوا". وهو هنا كان يؤشر الى ضرورة الإستفادة من الحظوة الكبيرة التي له خارج الدائرة الإسلامية الشيعية... حيث كان يتطلع الى أن تردم الهوة، وكثيرا من هذه الهوة في العلاقات الإسلامية – الإسلامية تحديدا ..

كان السيد فضل الله شديد الحب للناس، وكان الشخصية الأقرب إليهم بكل تلاوينهم وإنتمائاتهم ومن أكثر الأشياء سهولة أن تصل إليه وتجلس معه، سواء كنت طفلا أم شابا أم كهلا وشيخا، رجلا أم امرأة .. وكان يردد لمن يقصده من " الكبار والصغار" كلمته الشهيرة : " القلب مفتوح، والعقل مفتوح، والبيت مفتوح " .. ولذلك كنت تجد في منزله الدبلوماسيين والسياسيين يجلسون في صالونه الكبير الى جانب عامة الناس الذين كانوا يقصدونه في أوقات إستقباله للجميع قبل الظهر وبعد الظهر .. تغلب الجانب الإنساني والروحي والرسالي على الجوانب الأخرى من علاقة السيد فضل الله بالناس فكان يدنو منهم دنو المحب .. ومن يشعر بضغط الظروف عليهم، ويعيش مشاكلهم وألآمهم ويرفض أن يتميز عنهم.. وكان مستعدا –على طول الخط– للسماح والتنازل عن حقه وعن الإساءات التي كان يتعرض لها.. وأذكر أنه في الدرس القرأني الأسبوعي الذي كان يلقيه في حسينية الشياح بالضاحية الجنوبية في العام ١٩٨٣، وحيث كان يتلقى الأسئلة مكتوبة بعد الفراغ من محاضرته سئل من أحد الحاضرين: " مولانا أنا إغتبتك هل تسامحني؟ ".. فرد السيد بهذه العبارة التي كتبتها في وقتها والتي لا تزال كلماتها تتردد في مسمعي: " **أنا مسامح اللي اغتابني، ويلي عم يغتابني، واللي بدو يغتابني.. ولن أكون حجر عثره في طريق مؤمن إلى الجنة** ".. هكذا ينتصر الإنسان كما ينتصر البعد الرسالي" وهذا الموقف يختصر حياة هذه الشخصية منذ برزت الى الواجهة وانطلقت في العمل العام.

المسكون بالإسلام

كان السيد فضل الله مسكونا بالإسلام .. "الإسلام الحركي" والتسمية والمفردة من مفرداته، وكان شغوفا بأن يقدم أفضل نسخة عن هذا الإسلام..وكم كان يردد عبارات: الإسلام الحضاري.. الوجه الإسلامي المشرق.. الإسلام المنفتح على الحياة.. كانت هذه مفرداته لا بل كانت سيرته في كل ما سعى لتقديمه عن هذا الإسلام الذي ارتقى به فوق المذاهب والإنتماءات والمكونات.. في السنوات العشرين لأخيرة من عمره كان يردد هذه العبارة: "منذ أكثر من خمسين سنه وأنا أحمل خشبة الإسلام لأجد من يصلبني عليها.." كما كان يتندر بسيرة عمر بن أبي ربيعة الذي كان يترصد النساء حتى في الكعبة وعندما كان يسأل: أين هذا المكان يا أبا حفص؟.. كان يجيب: "أنا موكل بالجمال أتبعه".. كان السيد فضل الله يروي هذه القصة ثم يقول: "أنا موكل بالإسام أتبعه".

لكن أين الإسلام؟ الإسلام الذي لا يعرف عصبية، الإسلام المنفتح على الكون كله، إسلام محمد (صلع) الذي لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يوصي الأمة: **"لا ترجعين بعدي كفاراٍ يكفر بعضكم ببعضا، ويضرب بعضكم رقاب بعض.. هل بلغت.. اللهم فاشهد.."**

وأذكر أنه في إحدى المحاضرات لسماحته في تسعينيات القرن الماضي في بلدة الخيارة في البقاع الغربي وفي مركز عمر المختار الثقافي والتي كانت بدعوة من المركز الثقافي العربي سئل سماحته: " أنت سني أم شيعي" فأجاب ببديهيته المعهودة، التي حازت على تصفيق الأخرين: "السنة هم أهل الشيعة لأنهم يحبون أهل البيت، والشيعه هم أهل السنة لأنهم يعملون بسنة رسول الله، وأنا أرفض أن يقال سني أم شيعي، لننطلق من شخصيتنا الإسلامية قبل شخصيتنا المذهبية".

العلاقة مع الأخر

وحتى في تصوره للعلاقة مع الأخرين خارج الوسط الإسلامي، كان السيد فضل الله في رحلة بحث مستمرة عن المشتركات، وفي حالة رفض لذكر عناصر الإختلاف عندما تلتقي بالأخر.. " لماذا لا نركز على النقاط المشتركة وننطلق منها لنختصر مسافة الإختلاف بعد ذلك".. كان سؤاله المستمر مع هذا الشكل وخصوصا في العلاقة الإسلامية–المسيحية حيث كان يرى أننا نتفق مع المسيحيين على ما يتجاوز التسعين بالمئة فيما يتصل بالقيم".

كما ذكر في كتابه... "**في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي**".. وقد لفتت أريحيته هذه الكثير من المسيحيين الذين وجدوا في خطابه وكلماته حول الرحمة والمحبة وإحترام الإخر ما يدنو كلمات السيد المسيح عليه السلام، وأذكر في إحدى المقابلات التي أجراها معه الزميل الإعلامي مارسيل غانم عبر شاشة المؤسسة اللبنانية للإرسال LBC حين استمع الى السيد فضل الله يتحدث عن رفض الحقد وهو يردد: " تتكلم كمسيحي يا سماحة السيد.." فرد السيد فضل الله: "ماذا تقول أنا مسيحي عيسوي" ثم دخل في شرح حول المسيحية والإسلامية ملخصه أن المسلم يعيش عمق شخصيته الإسلامية عندما يتحدث عن السيد المسيح ويعيش في أفاقه..

لقد إنعكس الجانب الإنساني في شخصية السيد فضل الله على رؤيته حيال الآخرين، وتصوراته للعلاقات الإنسانية فيما يختص بالجوانب الدينية والعلاقة بين الأديان والمنتمين إليها وفي الجوانب الأخرى، وقد ترك ذلك بصماته على السيد فضل الله المحاور الذي كان يرى أنه "لا مقدسات في الحوار" وكانت بدايات حواراته الثقافية عندما جاء من النجف الأشرف الى لبنان في منطقة بنت جبيل في الجنوب اللبناني حيث رفع شعار: " ليس هناك سؤال تافه وليس هناك سؤال محرج، الحقيقة بنت الحوار".. وقد جسد هذا الشعار في كل مسيرته الثقافية والحركية وقد قال في إحدى محاضراته: " إننا نستطيع التحاور في كل شيئ، وإذا إستقام للمتحاورين أنهما لا يحملان معنى عدوانيا، الواحد تجاه الأخر، فبإمكانهما أن ينطلقا من أجل أن يتحاورا في كل شيئ... جوهر المشكلة أيها الأخوة أننا نتحدث مع الآخر من خلال ما نريده نحن لا من خلال ما يريد الآخر أن يقوله، ولذلك يتحول الحوار الى حوار مع الذات ومن طرف واحد".

نقاط القوة والضعف

وربما تجلت نقاط ضعف السيد فضل الله هذه في نقاط قوته... أي أن هذا البعد الإنساني الطاغي فيه جعله "العدو المثالي" لكل من أراد النيل من هذه الشخصية لأنه كان يعرف مسبقا أنه في أي وقت يعود ويؤوب إليه سوف يجده منفتحا عليه، متسامحا.. متناسيا كل ما أثاره من سلبيات حوله... وهذا ما عشناه مع سماحته في الحملة الكبيره التي أثيرت ضده منذ العام ١٩٩٤ تقريبا والتي انطلقت من كيانات.. وشاركت دول أحزاب ومرجعيات، وحيث عملت أجهزة متعددة على شيطنة السيد فضل الله تحت عناوين مختلفه، منها من يتصل بالجوانب السياسية وأخرى بأرائه التجديدية، وفي الغالب الأعم ما كان يتمحور حول المرجعية الإسلامية الشيعية، وقد دخلت الكثير من الأطراف والأجهزة مع خط هذه الحملة المنظمة والهادفة والساعية لتسقيط السيد فضل الله .. ولكنه كان طوال هذه الحملة التي استمرت وستستمر حتى بعد وفاته يرفض أن يرد على الإساءه بمثلها، أو أن يدخل في جدال عقيم مع الذين أثاروها أو انخرطوا فيها والبعض منهم كان من أترابه وعاش معه "رفاقة فكر" من النجف الأشرف الى مواقع أخرى.. وكان يعلن أنه متسامح مع كل الذين أساؤوا إليه ممن يجهلون ولا يعرفون.. وأنه في كل ما يتصل بالجانب الشخصي سوف يدعو لهؤلاء بأن يغفر الله لهم.. أما الذين أداروا المسألة وهم على دراية الى أين تذهب الأمور فلم يكن ليسامحهم لا لحسابات ذاتية كما كان يردد، بل لأنهم أساؤوا لصورة الإسلام ولمعنى التشيع الحقيقي... ولذلك فهناك الحق العام..

أما فيما عدا ذلك فقد قالها من على منبر مسجد الإمامين الحسنين في حارة حريك في أواخر التسعينيات: ".. **أنا أحبكم جميع، أحب الذين أختلف معهم لأتحاور معهم كما أحب الذين أتفق معهم لاتقارب معهم..**"

وكان الذين يقصدونه بعد انقشاع المشهد وبينهم ممن كتب ضده في الصحف وبينهم أيضا من كان "ناشطا" في المؤتمرات في مواجهته وإطلاق السهام عليه. كان السيد فضل الله يستجيب لطلب هؤلاء في زيارته من خلال الوسطاء، وكان يستقبلهم برحابة صدر على الرغم من كل ما أثاروه حوله...

في تلك المرحلة رأى السيد فضل الله والده في المنام... وقد كان أستاذه في الحوزه، وكان محاوره في القضايا الفكرية والفقهية الكبرى.. هز المنام السيد فجلس يكتب قصيدته التي جاء فيها في معرض مخاطبته لوالده:

يا أبي قد تطل روحي على الذكرى وعيناك في الكرى تحضناني
وأنا هائم مع الحلم النديان أهفو إليك في تحناني

إلى أن يقول:

انت علمتني السماح إما هز العنف ساحة الإخوان
قلت لي إن للمحبة عمقا أريحياً في لهفة الإنسان
قد يعيش الأشرار طهر الينابيع، بعيد عن وحلة الأدران
يشرق الحب روحه في نجواهم فللخير شهقة في المعاني..

هكذا عاش السيد فضل الله إنسانيته في إنسانية الأخر كما كان يقول، فلم يشعر ان ثمة ما يبتعد به عن الناس، وكان يتلمس الأعذار للكثيرين لأنه كان يرى أن ساحة الحياة مفتوحة للجميع كي يعودوا جادة الصواب كما أن الجنة مفتوحة للناس بمدى سعة رحمة الله التي تتطاول إليها حتى عنق إبليس..

قال المطران الراحل سليم غزال رئيس اللجنة الأسقفية للحوار الإسلامي المسيحي وهو يرئ السيد فضل الله.

" محمد حسين فضل الله بفقهه وفكره وأدبه هو عاشق الله في الإنسان، همه الأساس أن يعرف الإنسان أن الله يحبه، وأن بمقدور هذا الإنسان المحبوب من الله أن يحب الأخر، أي أخر، ويعتبره أخا له ".

لقد لخص المطران غزال السيد فضل الله في شخصيته الإنسانيه الرسالية التي تسامت فوق الإساءات والتحديات.. هذه الشخصية التي ستظل محل بحث في مدى العقود والقرون القادمة.. كما أعتقد.